صور من الحياة

قلوب من حجر

للأستاذ كامل محمود حبيب

- ٣ -

هبت نسمات الربيع تدفعني إلى الماضي الجميل ، فحن الفؤاد إلى مراتع الطفولة، وصبا القلب إلى ملاهي الصبا، ونزعت الروح إلى مهاد الذكرى ، هناك في القرية حيث الربيع الغض يمد سحره الرفاف، فينشر على الثرى بحراً سندسي الحواشي، مرح الأعطاف ، يبسم لهبات النسيم في رقة، ويصافحها في لين، ويعانقها في شوق ، حيث الغدير العذب ينساب إلى غير غاية ، يترنم بأناشيد الهوى ويشدو بألحان الغرام ، وهو يضم بين حبات قلبه صفيه الحبيب : شعاع الشمس الذهبي الذي يدفء حناياه بزفرات الشوق والحنين ؛ حيث فيء شجرة التوت يتهادى ليهدهد من أنات الثور المنى ونواح الساقية الشجى ؛ حيث أهلي الذين أتشوف إليهم برغم أن شواغل المال قد جرفتهم فجف فيهم الحنان وذوى العطف ونضب الصفاء ؛ حيث الفلاح الذي يئن تحت وقرين من ضنى العمل ورقة الحال ...

وجذبتني نوازع النفس إلى القرية فطرت إليها أستجم من عناء وأتدع من كلال وأهدأ من صخب ، فخلعت أول شيء لباس المدينة وهو ضيق يرهق الجسم ويحبس الدم ويخنق الحركة ، ثم انطلقت وحدي إلى مكان ذي ظل وهدوء ، علي أجد نفسي وخواطري معاً .

وتكبكب الفلاحون يحيون الضيف الذي حل في ديارهم على حين فجأة بعد سنوات من نأي كادت تمحو ورته من الذهن ، وتمسح سماته من الخاطر ، وتطوى تاريخه من الوعي ... الضيف الذي نفض عنه - في لمحة واحدة - أثر المدينة فلبس ثوب الفلاح في غير عنت، واستاق على ثرى أرضه في غير تحفظ، وأكل طعامه في غير تقزز ، وشرب شرابه في تكمش . وسمتني روعة المكان وروعة الاخلاص المتدفق من أغوار النفوس الطيبة الزكية التي ترفل في دثارين من الرضا والقناعة ؛ فأخذت معهم في حديث راح يتشقق فنوناً ، وإن فيه العذوبة والذكرى . ومضت ساعة من زمان وأنا أرقب رجلا منهم نفر عن الجماعة فانتحى ناحية فما شارك في الحديث ولا هش للمجلس ، ولكنه ظل في منأى عنا منطوياً على نفسه وعليه آثار الأسى وفيه علامات الحزن ؛ وتراءى لي كأنه يحمل على عاتقه أعباء السنين العجاف، وراعني أن ينفض السامر ولما أكشف عن طوايا نفسه أو أنفذ إلى أعماق قلبه ، وإني لأعرفه فتى طروب النفس خفيف الحركة قوى العضل . . أعرفه منذ أن كان أبي رب هذه الأرض وصاحب هذا الغيط وسيد هذا الناس ، ومنذ أن كنت أنا صبياً أرفل في عبث الطفولة وحماقة الصبـا .

وناديته فلبى وجاء يتوكأ على عصا وقد حطمته السنون فبدا هيكلا يتداعى من وهن وضعف ، ثم سألته « مالك لا تنغمر في الحديث ولا تندفع في السمر ولا تهتز للطرب ؟ »

فقال « يابني ! إن أبنـاء المدينة لا يفهمون لغة الريف ولا يستمرئون شكوى المظلوم »

قلت « وي كأنك نسيت أنني ابن الريف وربيبه ، لم تصرفني عنه إلا نوازع العيش ولا دعتني عنه إلا دواعي الوظيفة ! »

قال « ولكنك جئت ترفه عن نفسك باللذة الهادئة ، وتلتمس السكون والراحة من صخب المدينة ، فما كان لي أن أعكر صفو المتعة بشوائب الشكوى، ولا أن أدنس سعادة المرح بأنات الأسى »

قلت « لا بأس عليك ! هات حديثك عسى أن أجد لك فرجة من ضيق أو برءاً من سقام »

فقال في صوت شاع في نبراته الأسى وأفعم رنانه الحزن : « أما قصتي فهي قصة الضعف تعصف به القوة العارمة ، قصة الفقر يعبث به الغنى الجارف .

« لعلك ، يابني ، لا تذكر يوم أن تركت غيط أبيك إلى ضيعة سعادة البك ! لقد فعلت وإنه ليتراءى لي أنني أفر من ضيق إلى سعة ومن شظف إلى خفض . وكنت - إذ ذاك - فتى في الطمع والطموح في وقت معاً ونسيت أن الثراء العريض لا يرقق القلوب القاسية ، وأن النعمة السابغة لا تداوي الأنفس الشح ، وأن المال

الوفير لا يلين العقول الجافة ؛ ولكنني طرت إلى عزبة البك

«وتقبلني سعادة البك ورجاله بقبول حسن ، وتقبلت أنا العمل بشوق وأمل ، وانطوت الأيام فإذا أنا أقرب الناس إلى قلب البك ، يسبغ علي من نعمته ويحبوني بفضل رعايته ، ثم يقيمني رئيساً على عماله

« ووجدت في عملي الجديد معاني السيطرة والسلطان ، وأنا حينذاك - رجل صقلتني التجارب وشذبتني الحياة ، فرحت أبذل غاية الجهد وأستنفد وسع الطاقة لأكون أهلا لثقة البك ، وعشت بين العمال أخاً وصديقاً وصاحباً ، وعشت في الغيط أميناً وخاصاً ، وعشت في دار سعادة البك خادماً وعبداً ؛ لا أتطاول إلى طمع ولا أتشوف إلى جشع ، ورضيت ورضي أهلي ، وأحس أولادي بالخفض والسعة ؛ فاطمأنت نفسي وسكنت جأشتي واستنامت خواطري ، ولكن الحوادث لم تنم ...

« وعلى حين غفلة أصاب ابني الأكبر داء عضال ، فتفزع قلبي واضطربت حياتي لأنه عوني وساعدي ولأنه ابني ...

«وطرت إلى الطبيب أستشيره وأستمينه على أمري ، وتحدث الطبيب حديثاً ثلج به صدري وتطامنت له لوعتي ، ثم بدأ يطب لمرض المريض وأنا أدفع الأجر من عرق الجبين وأجزل العطاء من عناء العمل

« ليت شعري هل كان الطبيب يسخر من غفلتي ويهزأ من جهلي حين راح يمدني في الأمل ويفسح لي في الرجاء ليخدعني عن مالي ويستلبني من كد العمر . آه ، يابني ، لقد ظل ابني بين يدي الطبيب شهوراً لا يجد الراحة ولا الشفاء والطبيب يمكر بي ليستنفد طاقتي حتى لصقت يدي بالتراب ولم يبق في داري سوى صبابة توشك أن تنضب ، ولكن الأمل ... ومرت الأيام فإذا أنا لا أجد قوت يومي ، وإذا الطبيب ينذرني في جفاء وغلظة ... ينذرني بأن يقذف ابني إلى عرض الشارع إن أنا لم أشبع نهمه أو أرد غلته

« ياقلبي ! ما أغلظ أكباد قوم سيطر عليهم سعار المال فصرفهم عن معاني الإنسانية السامية وذادهم عن رقة الرحمة والشفقة !

« وانطلقت إلى سعادة البك - سيدي - أقص قصة ابني المريض وهو يقاسي برحاء المرض عند الطبيب ، وأنا أعاني مس الفاقة هنا بين يديه ، وطلبت إليه أن يعينني ببعض ماله ... بخمسة جنيهات .

«وحدجني البك بنظرات قاسية ثائرة ثم قال « وإذن فقد شغلك ابنك عن عملي شهورا . لا بأس فهذا أمر أستطيع أن أغفره لك . أما الجنيهات ، فمن ذا الذي أوهمك بأن داري هي بعض التكايا فتطمع أن تجد فيها مالا غير أجرك الذي تستحق ».

«وانكشف لي قلب سعادة البك عن حجر لا ينبض برحمة ولا يخفق بشفقة فملت له في توسل « ولكنني خادمك منذ زمان وهذا ابني بين يدي طبيب غليظ الكبد قاسي الطبع خدعني عن كل مالي وهو الآن يوشك أن يقذف به مريضا إلى عرض الشارع لأنني لا أجد ثمن العلاج ولا ثمن الدواء » .

فقال في قسوة « لا عجب أن تمن علي بعمل نلت أجره مرتين . أما الطبيب ، أما ابنك فلا شأن لي بهما ، فاخرج وإلا ... »

« وخرجت من لدن سعادة البك وأنا أذرف عبارات الأسى واليأس وقد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت ، وحدثتني شجوني بأن ألقي بنفسي في اليم لأخلص من حياة لا أحس فيها إلا قلوبا قدت من حجر فما أمسكني إلا ابني المريض الذي يترجى عودتي »

« وأنفت نفسي - منذ تلك الساعة - أن أعيش في كنف البك الذي تكشف لي عن وحش مفترس يتأنق في مسلاخ إنسان ، وترامى الخبر إلى البك فأقام حارسا على داري ، ثم طردني وحبس قوتي وقوت عيالي فما استطعت أن أحمل مني الذرة ولا القمح ... ولا العيش . وتركت الدار التي كنت أسكن في عزبة البك ... تركتها يوم أن مات ابني »

« واحر كبدي ! لقد عشت ساعة على قارعة الطريق أذرف لوعة قلبي وحرقة فؤادي أمام جثة ابني المسجاة في أسمال لأن سعادة البك رفض أن ندخله في داره ، وأبى في قسوة أن يمد لي يده في ساعة العسرة ، ولكن عماله أعانوني في الشدة وساعدوني في الضيق .

« ولا عجب - يا بني - فإن الإنسانية حين تتهاوى تسفل فتتضع فتنحط إلى أوضع مراتب الحيوانية ! »

كامل محمود حبيب